

السؤال

الله تعالى يعرف تغير الأنفس قبل أن تتغير فلماذا ونحن أجنة في بطون أمهاتنا ونولد ونحن فقراء ثم يغنيننا الله ؟ لماذا هذا الانتظار من الله تعالى ؟ لماذا لا نولد ونحن أغنياء ؟ كذلك الغني يولد وهو غني ثم يتغير حاله ويصبح فقيراً ، لماذا لا يغير أنفسنا مباشرة منذ كنا أجنة ؟ أتمنى أن ألقى الإجابة الوافية التي تذهب هذا الإشكال عني .

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

سؤالك عن الحكمة من تغيير حال الإنسان من غنى إلى فقر ، أو من فقر إلى غنى ، وقد كان الله قادراً على أن يجعله على صفة واحدة منذ كان جنينا ، جوابه من وجهين :

الأول : أن الله سبحانه هو الخالق العليم الحكيم الخبير ، فلا يُسأل عما يفعل . لا يقال : لماذا فعل الله كذا ، ولماذا لم يفعل كذا ؟ لأنه سؤال من عبد ضعيف قاصر عاجز ، لرب عظيم قادر حكيم فعال لما يريد ، ولهذا قال الله سبحانه : (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) الأنبياء/23 ، وقال تعالى : (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) القصص/68 ، وقال تعالى : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا) الأحزاب/46 ، فهذا هو الأدب مع الله ، أن يؤمن العبد بحكمته ، وأن يسلم لأمره ، وألا يعترض على خلقه واختياره وتدبيره .

الثاني : أننا مع قصور علمنا ، ندرك وجود حكمٍ عظيمةٍ بالغة من هذا التغير الذي يعتري الإنسان ، وينقله من حال إلى حال ، كحال الغنى إلى الفقر ، أو الصحة إلى المرض ، أو عكس ذلك ، ومن هذه الحكم :

- 1- ابتلاء العبد واختباره حين يتغير حاله ، هل يصبر عند البأساء ، ويشكر عند السراء ، وهذا الامتحان لا ينجح فيه إلا أهل الإيمان ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : (عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ) رواه مسلم (2999) . وأما ضعاف الإيمان فإنهم يطغون عند حصول النعمة ، فينسون الشكر ، ويجزعون عند النقمة ، فيفوتهم الصبر .
- 2- أن يظل العبد معلقاً قلبه بالله تعالى ، مدركاً أن ما هو فيه من النعمة والغنى إنما هو رزق من عند الله ، وأن الله قد يغير حاله ، ويبدل أمره ، فيظل مستمسكاً بأمر الله ، حذراً من الوقوع في معصية الله .
- 3- أن لا ييأس صاحب البلاء والفقر والمرض ، بل يعلم أن ربه عظيم قدير ، يغير الإنسان من حال إلى حال ، فكم من مريض أضحى صحيحاً ، وكم من فقير أمسى غنياً ، ولو كان الإنسان يثبت على حال واحد ، لما كان لهذا المبتلى من رجاء ولا رجاء

4- أن هذا التغيير جزء من الابتلاء الذي أقيمت عليه الحياة الدنيا ، يُبتلى فيها الإنسان بالخير والشر ، والسراء والضراء ، والنعمة والبأساء ، حتى ينتقل إلى دار الجزاء ، فهناك سعادة أبدية ، أو شقاوة سرمدية ، كما قال سبحانه : (وَنَبَلُّوكُمْ بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فَتَنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) الأنبياء/35 ، وقال تعالى : (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) الإنسان/2 ، وقال تعالى : (يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقِيٌَّ وَسَعِيدٌ) هود/105 .

5- أن هذا التغيير فيه تذكير لأهل الغفلة ، وتنبيه لأهل المعصية ، حتى يرجعوا إلى ربهم ، ويتوبوا إلى بارئهم ، ويعلموا أن لهم ربا عظيما يأخذ بالذنوب ويعاقب عليه ، كما قال الله سبحانه : (وَكَلَّمْنَا هُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) الأعراف/168 ، وقال تعالى : (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) الأعراف/130 ، وقال تعالى : (فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) الأنعام/43 ، وقال تعالى : (أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ) التوبة/126 ، فبين أن هذه الفتنة إنما هي لدعوتهم للتوبة والذكرى .

إلى غير ذلك من الحكم التي يعلمها الخالق العليم الحكيم الخبير .

ومن كلام ابن القيم رحمه الله : " : أنه سبحانه يجب أن يشكر ، ويحب أن يشكر ، عقلا وشرعا وفطرة . فوجوب شكره أظهر من وجوب كل واجب .

وكيف لا يجب على العباد حمده وتوحيده ومحبته وذكر آلائه وإحسانه وتعظيمه وتكبيره والخضوع له والتحدث بنعمته والإقرار بها بجميع طرق الوجوب ؟

فالشكر أحب شيء إليه وأعظم ثوابا ، وإنه خلق الخلق وأنزل الكتب وشرع الشرائع وذلك يستلزم خلق الأسباب التي يكون الشكر بها أكمل .

ومن جملتها : أن فاوت بين عباده في صفاتهم الظاهرة والباطنة ، في خلقهم وأخلاقهم وأديانهم وأرزاقهم ومعاشهم وآجالهم فإذا رأى المعافى المبتلى ، والغنيُّ الفقير ، والمؤمنُ الكافر ، عظم شكره لله ، وعرف قدر نعمته عليه ، وما خصه به وفضله على غيره ، فازداد شكرا وخضوعا واعتராفا بالنعمة ...

ولولا خلق القبيح لما عرفت فضيلة الجمال والحسن ، ولولا خلق الظلام لما عرفت فضيلة النور ، ولولا خلق أنواع البلاء لما عرف قدر العافية ، ولولا الجحيم لما عرف قدر الجنة .

ولو جعل الله سبحانه النهار سرمدًا لما عُرف قدره ، ولو جعل الليل سرمدًا لما عرف قدره ، وأعرف الناس بقدر النعمة من ذاق البلاء ، وأعرفهم بقدر الغنى من قاسى مرائر الفقر والحاجة .

ولو كان الناس كلهم على صورة واحدة من الجمال لما عرف قدر الجمال . وكذلك لو كانوا كلهم مؤمنين لما عرف قدر الإيمان والنعمة به ، فتبارك من له في خلقه وأمره الحكم البوالغ ، والنعم السوابغ " انتهى من "شفاء العليل" ص 443 . والله أعلم .